دور العلماء في تأسيس الدولة المرينية

بن سالم هشام
طالب دكتوراه قسم التاريخ جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر2

ملخص:

تعد فئة العلماء من أبرز الشرائح المؤثرة في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية،وفي تأسيس الدول وإسقاطها،بحكم المكانة والمنزلة التي حظيت بها داخل المجتمع الإسلامي،وتعاونها مع بقية الشرائح الأخرى في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية،لذا سأحاول من خلال هذا المقال إبراز دور العلماء في تأسيس الدولة المرينية،التي تعتبر من أهم الدول التي عرفها المغرب الإسلامي،حيث قامت في المغرب الأقصى وسعت لتوحيد المغرب الإسلامي كما كان في عهد الموحدين،نظرا للقوة التي امتلكتها ومع ذلك سعى المرينيون للبحث عن الشرعية من خلال استقطاب العلماء،الذين اضطلعوا بجهود كبيرة في سبيل تأسيس هذه الدولة.

الكلمات المفتاحية:

العلماء-الفقهاء-المرينيون-المغرب الأقصى-فاس-المغرب الإسلامي.

Summary : The category scientists upper chip affecting the construction of the Arab Islamic civilization,by virtue of the prestige and dignity of the inside Islamic society,and cooperation whit the rest of the other chips in various political economic and social areas intellectual,so I will try in this article to highlight the role of scientists in the founding of the state Marini school,which is considered one of the most Important Islamic states defined by Morocco in Morrocco,where the maximum and sought to unify Islamic Morocco was also in the era of the combined,in view of the force however acquired by Meridined sought to seelegitimacy thourgh attracting scientists,who have undertaken significant efforts in the establishment of the state.

Key words :scientists-scholars-almrynyin-Morocco brigades-Faz.

المقدمة:

من أبرز ملامح العالم الإسلامي مشرقا ومغربا عبر تاريخه الإسلامي،هو النفوذ الذي اكتسبه العلماء المسلمون،في كافة مجالات الحياة العامة،واضطلاعهم بتأسيس العديد من الدول ومشاركتهم في مصادر القرار،وكذلك توجيه السلطة السياسية في أغلب الفترات التاريخية،والأكثر من ذلك تواجدهم عند المحن والأزمات التي تصيب الأمة الإسلامية.على أية حال يشكل موضوع"**دور العلماء في تأسيس الدولة المرينية**"أحد المواضيع المهمة التي لم يتم سبر غورها بعد،بشكل عميق نظرا لطغيان الجانب السياسي والعسكري على تاريخ هذه الدولة،كما يندرج هذا الموضوع ضمن الدراسات التركيبية؛أي محاولة الموازنة بين التاريخ السياسي-الفردي- الذي نال حيزا واسعا،والتاريخ الحضاري-الجماعي-الذين نسعى لنفض الغبار عنه،ذلك أن العلماء والسلطة السياسية هما وجهان لعملة واحدة،ولا يخفى عنا كذلك أن النشاط العلمي والحضاري هو أكثر الأنشطة الإنسانية إشراقا وتألقا،هذه هي الفئة التي نسعى للتعرف عليها والتعامل الجاد مع أدوارها،محاولين من خلال ذلك البحث عن الذات،والتجذر في مرجعيتنا وهويتنا،وتعميق التواصل بين ماضينا التليد وحاضرنا المعاش،وتلمس الملامح والخصوصيات،راجين استحضار ذلك التألق والتطور الحضاري الكبير الذي وصلته أمتنا عبر تاريخنا المشرق الذي أضاء العالم آنذاك. لذا يقتضي السياق المنهجي للموضوع أن نتحدث أولا عن أصل بني مرين،ثم نعرج على صيرورة مرحلة التأسيس وتجلياتها،وأخيرا دور العلماء في قيام الدولة المرينية،ولعل التساؤل الذي يتمحور حوله الموضوع هو:ما هو الدعم الذي قدمه العلماء للمرينيين في تأسيس دولتهم؟.

تبلورت علاقة العلماء بالسلطة السياسية،خصوص بعدما أصبح البناء الفكري العقدي والمذهبي متكاملا،من خلال الدور الريادي الذي اضطلع به العلماء في تأسيس العديد من الدول في المغرب الإسلامي،وحتى إسقاطها إن حادت عن المنهج السليم،فهذه الدول سعت دائما للبحث عن الشرعية والمباركة من قبل العلماء،والتسابق من أجل استقطابهم والتقرب إليهم،حيث يجمل ابن خلدون هذا التوجه قائلا:"...**واعلم أن من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبائل أولوا العصبية،وتكون شاهدة لهم بالملك،إكرام العلماء والصالحين والأشراف وأهل الأحساب وأصناف التجار والغرباء وإنزال الناس منازلهم.....فالصالحون للدين،والعلماء للجأ إليهم في إقامة مراسم الشريعة،والتجار للترغيب حتى تعم المنفعة بما في أيديهم،والغرباء من مكارم الأخلاق وإنزال الناس منازلهم من الإنصاف وهو من العدل...**"[1]،فلا غرو أن تأسيس كثير من الدول في بلاد المغرب الإسلامي استند إلى دعوة دينية وعصبة قبلية[2]،فالعلماء كانوا المحرك الأساسي لهذه العصبة من خلال الإصلاح الذي يقومون به على ضوء أحد المذاهب،ويعملون على أن تؤتي هذه الدعوة أكلها وتتأسس الدولة التي هي خاتمة لها،ويهيئوا جيلا آخر يأخذ مشعل الدعوة والدولة معا،بحيث أفصحت كثير من التجارب وأبانت عن جهود العلماء في تأسيس الدول

التي توالت على منطقة المغرب الإسلامي عموما،والمغرب الأقصى خصوصا،بدءا بإدريس بن عبد الله[3]،الذي كان عالما من علماء بيت النبوة،حيث أسس الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى[4]،ثم دولة المرابطين التي عدت دولة العلماء بدون منازع[5]،وأيضا الدولة المؤمنية الموحدية التي أسسها الفقيه محمد بن تومرت من خلال الثورة التي قادها ضد الفقهاء6.كما استند الزيانيون منذ تأسيس دولتهم على العلماء كسبا للشرعية،ومن قبلهم الحفصيون الذين أقاموا دولتهم على مذهب الموحدين[7]،واستطاع المماليك أن يؤسسوا دولتهم بفضل دعم العلماء ووقوفهم إلى صفهم لتوحيد البلاد والتصدي لأعداء الخارج[8].

إن هذه المقاربة التاريخية لجهود وأدوار العلماء تبرز لنا مدى الثقل الذي تشكله هذه الشريحة،وأن تواجدها تحصيل حاصل وأمر لابد منه فلا يكفي الجند والأعوان والأنصار والمال في قيام الدول،بل ينبغي أن يكون العلماء في طليعة الدولة وأساسها المكين الذي تقوم عليه.

1-أصل بني مرين:

ينتسب المرينيون إلى قبيلة زناتة الكبيرة حيث صنفهم ابن خلدون في الطبقة الثانية من زناتة"...**وهم أكثرهم عددا وأقواهم سلطانا وملكا وأعظمهم دولة**..."9،كما عظم ابن أبي زرع من أصلهم قائلا:"...**أما بنو مرين فهم أعلى قبائل زناتة حسبا وأشرفها نسبا،وأغزرها كرما،وأحسنها شيما،وأرعاها ذماما،وأرجحها أحلاما،وأشدها في الحروب بأسا وإقداما،وأكثرها دينا،.....والبعد عن الغدر والعار والحيف،والأدب والدين،وإكرام العلماء وتوقير الصالحين لم يزالوا على هذا السن القويم،والمنهج المستقيم،يعرفون به في الحديث والقديم،أبقاهم الله تعالى متصلة أيامهم،منصورة أعلامهم نافذة أحكامهم،ماضية في الأعداء سيوفهم وأقلامهم،بمنه وكرمه**..."[10]،ووافقه على ذلك محمد ابن مرزوق الخطيب[11]،وإسماعيل ابن الأحمر[12]،المهم أنهم بطن من بطون قبيلة زناتة"...**وهم من ولد مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدر بن يخفت بن عبد الله بن ورتيب بن المعز بن إبراهيم بن سجيح بن واسين**..."[13]،وكانوا يعيشون بالصحاري والقفار من فكيك إلى سجلماسة14 إلى ملوية،وربما يصلون في بعض الأزمنة15 إلى بلاد الزاب[16]،بحكم الطبيعة البدوية التي كانوا يعيشونها وهذا دأب القبائل التي تعيش على الأنعام والمواشي،تحتاج إلى الترحال الدائم بحثا عن الكلأ والماء،فاعتادوا على شظف العيش وصعوبة التضاريس والمناخ،مما أكسبهم قدرة على التحمل وشدة البأس والاستماتة في القتال والمراس،فعدوا من أقوى القبائل الزناتية[17]،وهذا ما نحى ببعض المؤرخين لإضفاء النسب الشريف عليهم كابن الأحمر الذي يقول:"...**هم فخذ من زناتة من أشرافهم،وقد قيل إنهم شرفاء،ورفع بعض أهل التاريخ نسبهم الشريف من جدهم عبد الحق إلى أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب** ﷺ..."[18]،والظاهر أن الرقعة التي احتلتها قبيلة بني مرين الزناتية مردوها لكثرة

البطون المنضوية تحتها،فكانت من الكثرة بحيث شكلت قوة لا يستهان بها،ولها تأثيرها في مجريات الأحداث بالمنطقة منذ عصر المرابطين[19].

2-سيرورة مرحلة التأسيس وتجلياتها:

شهدت بلاد المغرب الإسلامي مع بداية النصف الأول للقرن07هـ/13م تحولات جذرية،صاحبها أفول دول وتأسيس دول جديدة،ومنها الدولة المرينية التي قامت في بلاد المغرب الأقصى،فالمتمعن لأطوار هذه الدولة يرى أنها لا تخرج على الأدبيات التاريخية التي تتبنى التقسيم الثلاثي الشهير"**النشأة-الأوج-الانحطاط**"[20]،فأبجديات التعامل مع مرحلة التأسيس تقتضي منا الغوص في أغوار المعطيات التاريخية التي صاحبت البداية الأولى للدولة،وتتبع الأدوار والمراحل المتعاقبة التي عرفتها الدولة من التأسيس إلى العظمة،إن هذا النسق المتصل ينبئ على تبلور فكرة الدولة في فكر المؤسسين الأوائل من المرينيين فكان عليهم أن يثبتوا للجميع أنهم أحق بوراثة الموحدين.

لقد تعددت العوامل التي أدت إلى تأسيس الدولة المرينية،ولكن المتفق عليه بين المؤرخين أن العامل الديني والمذهبي،لم يوظف ويعتمد عليه في بداية التأسيس"...**فلم يكن ثمة من إقامة مذهب جديد أو عقائد مستحدثة،حيث أن مذهب مالك قد تركز في المغرب منذ المرابطين وفشلت جهود الموحدين بعدهم في إرغام الناس على إعتناق مبادئ المهدي بن تومرت بصورة نهائية**..."[21]،أما بخصوص العامل الاقتصادي فقد كان حاضرا وبقوة،ذلك أن قوة الموحدين منعت بني مرين من الإنسياح في المناطق الشمالية وتملك أراضيها،فلما ضعف شأنهم وتضعضعت دولتهم،وجدوا متنفسا وتطلعوا لأخذ بلادهم واستغلال خيراتها وثرواتها[22]،كما لا يخلو الأمر من العامل القبلي حيث أثرت الحزازات السابقة التي كانت بين المرينيين وبني عبد المؤمن في إذكاء الصراع بين الطرفين،فم ينس بنو مرين تنكيل الموحدين بهم واستعانتهم بأبناء عمومتهم بني عبد الواد لقتالهم ومظاهرتهم لهم ضدهم[23].

فلا غرو أن الدولة المرينية وجدت الأرضية التي ارتكزت عليها وأصبح الزمن مهيأ لتقبل قيامها،ذلك أن الدولة الموحدية الكبرى كانت قد استنفذت أسباب بقائها وبدأ الضعف يسري في جسمها،وانفرط عقد السلطان على الجملة وفقد السلطة المركزية هيمنتها على الأقاليم والمناطق الخاضعة لها[24]،وقد أكد ابن أبي زرع ذلك قائلا:"...**لما أراد الله إظهار الدولة السعيدة المرينية المباركة العبد الحقية ونسخ الدولة الموحدية المومنية لما سبق في قدره وعلمه،من مبرم حكمه،كان من تقدم من ملوك الموحدين أولي حزم ورأي ودين،إلى أن كانت وقعة العقاب فأذنت دولتهم.....فتحاسدوا فيما بينهم على الرياسة،وناقض بعضهم بعضا تكبرا ونفاسه،وأدرك رؤساءهم الإعجاب،فأضاعوا الأمور وأغلظوا الحجاب،وقطعوا الأرحام،وجاروا في الأحكام،وولوا أمورهم سفلتهم،وتحكم عليهم أشرارهم،فبدا الفساد في ملكهم.....وبعث لفنائهم عصبة مرين،وأيدهم عليهم فأصبحوا ظاهرين...**"[25]،ومهما تعددت

الأسباب المؤدية لسقوط دولة الموحدين،إلا أن الإقدام على تقويض أركان دولة عظيمة كهذه لم يكن أمرا هينا،في ظل الإمكانيات المتوفرة في مرحلة التأسيس،فبالرغم من قوة بني مرين إلا أنها لم ترق إلى قوتي المرابطين والموحدين[26]،ومع ذلك لا يمكن إغفال القوة المرينية التي استطاعت تقويض أركان دولة الموحدين،والثأر لهزائمهم التي ألحقوها بهم،فقد صاحب لحظة التأسيس الأولى عنفوان واندفاع هائل ودماء جديدة،لها همة عالية على المضي قدما لهذه الغاية،والظاهر أن الموحدين أنفسهم قد ساهموا في انهيار صرح دولتهم من خلال تصارعهم على الحكم وغفلتهم عن استقلال مناطق كثيرة عن سلطانهم،فأذهب هيبتهم وقوتهم في نظر تلك القبائل التي قهروها بادئ أمرهم بفضل دعوتهم[27]،أضف إلى أن الأمراء الأولين من بني مرين كانوا على علم بأوضاع دولة الموحدين،فاهتبلوا فرصة الضعف الذي كانت تعيشه للإجهاز عليها والحلول مكانها،ولكن الأمر سيأخذ منحنى آخر من خلال اشتراك المرينيين مع الموحدين في الخدمات المخزنية الحكومية،وكذلك في الجهاد بالأندلس،فتعرفوا عليهم من داخلهم وفقهوا أساليبهم في الحكم والإدارة ووقفوا على مواضع القوة والضعف في الدولة[28]،فتمهد طريق المرينيين وواتتهم الفرصة التي كانوا ينتظرونها بعد وقوع معركة حصن العقاب سنة609هـ/1212م،وأسفرت عن هزيمة منكرة للجيش الموحدي عجلت بضعف الدولة،حيث يقول ابن أبي زرع في ذلك:"**...فلما كان عام عشرة وستمائة أتوا على عادتهم من البرية فوجدوا المغرب قد باد أهله ورجاله،وفني خيله وحماته وأبطاله،ومات الكل بغزاة العقاب،واستولى على بلادهم الخراب،عمرته السباع والذياب،فأقاموا بمكانهم وبعثوا إلى إخوانهم وأخبروهم بحال البلاد وخصبها وطيب مزارعها وسعة مراعيها وكثرة مياهها ومشارعها والتفاف أشجارها...وقالوا لهم أسرعوا إليها،فليس بها من يصدكم عنها ولا من ينازعكم فيها،فوصل الخبر إلى مرين فبادروا إلى المغرب مقبلين...**"[29]،إن الحالة التي كان يعيشها المغرب بعد هزيمة الموحدين جعل المنطقة تخلوا من السكان،فبادر إليها المرينيون واستوطنوها وملأوا شعابها وسهولها وهضابها وأوديتها حتى وصلوا وادي تلاغ فدخلوا بلاد المغرب منه[30].

وفي نفس السياق صاحب مرحلة الانتقال من الصحراء إلى الشمال تبلورا في فكرة الانتقال من القبيلة إلى الدولة-أي من مرحلة البداوة إلى مرحلة المدنية والتحضر-حيث تطلع المرينيون لأخذ مكانهم في مجريات الأحداث،فمنذ سنة614هـ عندما تولى الإمارة أبو سعيد عثمان[31] بن الشيخ عبد الحق الذي خلف والده بعد مقتله،بدأت معالم تأسيس الدولة تتضح من خلال ما قام به هذا الأمير من تثبيت لسلطانه على المناطق المجاورة وإخضاع القبائل التي تسكنها،وخصوصا بعد معركة نهر بوقر قرب مدينة فاس،وأضحى المرينيون بعدها أصحاب الشأن والقرار على شمال المغرب الأقصى وفرضوا على تلك المدن الضرائب والإتاوات[32].

وبعد مقتل أبي سعيد عثمان،سارع رؤساء بني مرين وشيوخهم لمبايعة أخيه الأمير أبي معرف محمد بن عبد الحق[33]،وأن يسمعوا له ويطيعوا ويقيموا معه على حرب عدوهم،وأن يسالموا من سالم؛حيث واصل ما قام به أخوه من مقارعة الموحدين واجتثاث سلطانهم من جذوره،ولكن الحظ خالف المرينيين هذه المرة حيث انهزموا أمام جيوش الموحدين في المعركة التي جرت بموضع يعرف بصخرة أبي بياش من أحواز مدينة فاس،وقتل فيها الأمير أبو معرف محمد سنة642هـ[34].كانت هذه الهزيمة ضربة قاسمة للمرينيين حيث انسحبوا ليلا من أرض المعركة وتحصنوا بجبال غياثة،ثم اجتمعوا وتداولوا الأمر بينهم واتفقوا على مبايعة الأمير أبي بكر بن عبد الحق[35] أخو الأمير محمد بن عبد الحق في09جمادى الآخرة سنة642هـ"...**وهو أول ملك في بني مرين جند الجنود،وضرب الطبول ونشر البنود،وملك الحصون والبلاد،واكتسب الطارف والتلاد،وأعطى النصر والتمكين،فكان عنوان سعد بني مرين...**"[36]،لقد أخذت الحركة المرينية في عهد الأمير أبي بكر طابعها السياسي وهو تكريس لما قام به من سبقه من الأمراء[37]،ولكنه بادر في البداية إلى تقسيم البلاد على أشياخ المرينيين وقبائلهم وأنزل كلا منهم ضاحية من الضواحي كخطوة تنظيمية إصلاحية[38]،لقد أظهر هذا الأمير مقدرته الإدارية وحنكته السياسية حيث تدرج في اتخاذ القرارات قبل الانتقال إلى الحسم العسكري[39].فيمم وجهه صوب مكناسة[40] وأخذها صلحا في سنة643هـ،ومن الواضح أن هذا الأمير كان يعرف ما يريد وكيفية التصرف عند المواقف الحرجة،فمنذ دخوله إلى مكناسة بدأ الموحدون يدركون خطر المرينيين وتهديدهم لسلطانهم،لذلك قرر الخليفة الموحدي السعيد[41] إيقاف الزحف المريني،حيث خرج من مراكش[42] على رأس جيش عرمرم حتى وصل إلى وادي بهت،ولما وقف الأمير أبو بكر على جلية الأمر بنفسه قرر مصالحة الموحدين والدخول في طاعتهم وبعث بذلك إلى الخليفة السعيد فقبل بذلك[43]،واشترط عليه أن يرسل إليه خمسمائة فارس للخدمة لكي يستقوي بهم على حرب بني عبد الواد الذين استقلوا يتلمسان،ولكن الخليفة السعيد قتل على حين غرة بيد يغمراسن بن زيان وانتهت بذلك مغامراته وتفرق جيشه وانتهبت محلته وعسكره،ولما علم الأمير أبو بكر أجهز على بقايا جيش الموحدين"بكرسيف" وأخذ أسلابهم وانتزع الآلة من أيديهم[44].

لقد أعطى هذا الانتصار نفسا كبيرا لبني مرين الذين اندفعوا لضم المدن والحواضر المغربية،حيث دخلت في سلطانهم تباعا كل من مكناسة ورباط تازة وجميع حصون ملوية وذلك في آخر صفر سنة646هـ،أما مدينة فاس فقد دخلها الأمير أبو بكر صلحا في آخر شهر ربيع الأول سنة646هـ[45].لقد أثبت الأمير أبو بكر أنه رجل المهمات الحقيقية حيث نقل قومه من مرحلة القبيلة إلى مرحلة الملك،واستكمل ضم جميع أقاليم المغرب الأقصى وهزم الموحدين في عدة مواضيع،حيث يذكر ابن أبي زرع ذلك:"...**وذلك بعد موت السعيد بشهرين،فاستقامت له الأمور بالمغرب وتمهد له الملك وقدمت عليه الوفود للبيعة والتهنئة وتهدنت البلاد وتأمنت الطرقات**

وعمارة القرى والمداشر الخالية والاستكثار من الحرث،فرخصت الأسعار وصلح أمر الناس..."[46]،حيث مهد الطريق للأمراء الذين جاؤوا بعده في مواصلة مرحلة التأسيس وبناء الدولة،فبعد وفاته سنة656هـ بويع الأمير عمر بن أبي يحي[47]،ولكن نفرا من أشياخهم وأهل الحل والعقد ارتأوا أن عمه يعقوب بن عبد الحق[48]،أصلح للإمارة منه،وكاد الأمر أن يزداد سوءا ويقع الاختلاف بينهم لكن تصالح الأمير عمر وعمه يعقوب على أن تكون بلاد تازة وبطوية وملوية للأمير عمر،وفاس للأمير يعقوب إلى أن خلص الأمر ليعقوب بن عبد الحق بعد مقتل الأمير عمر سنة656هـ[49]،وكان هذا الأمير غرة في جبين الدولة المرينية حيث اضطلع بدور ريادي لإيصال المرينيين لتحقيق مبتغاهم المنشود وهو تأسيس الدولة،فقد توفرت فيه صفات القيادة والزعامة والحكمة وبعد النظر والإقدام على الأمور العظيمة ومواصلة ما قام به أخوه الأمير حيث ضم كل أقاليم المغرب الأقصى من بلاد السوس إلى وجدة،وقضى على دولة الموحدين وأزالها من الوجود،كما ضم مدينة سجلماسة وبلاد درعة ومدينة طنجة،وبلغ ملكه سبتة وبلاد الأندلس ما يزيد عن خمسين إقليما وحصنا وحاضرة،حتى خطب له على منابر المغرب[50]،واستحق لقب المنصور حيث لم تكسر له راية في معركة من المعارك،لقد كان المنصور عند حسن ظن الجميع حيث أثبت لهم أنه أمير من طراز فريد،قادر عنيد لا يستسلم بسهولة،ولا يصبر على عدوه،أقام العمران وقمع الشرور والفساد،وأحيا رسم الجهاد،وأسس دولة عظيمة ووحد البلاد على كلمة واحدة[51].

إن المتمعن لصيرورة مرحلة التأسيس يرى طبيعة الظرف الذي استغله المرينيون لإقامة صرح دولتهم،ألا وهو ضعف الدولة الموحدية وكذلك استغلال الفرص التي واتتهم،ثم إن عزيمة وهمة وطموح الأمراء المرينيين كانت وراء نجاحهم الباهر كما لا يخلو الأمر من توظيف لمبدأ الشرعية والأحقية لاكتساب ثقة الناس وتأييدهم،من خلال تمذهب المرينيين بمذهب مالك بن أنس رحمه،كل هذا جسد لنا مرحلة التأسيس.

3-دور العلماء في قيام الدولة المرينية:

استغرقت مرحلة التأسيس زمنا معتبرا من عام614هـ إلى غاية سقوط مراكش بيد يعقوب المنصور سنة668هـ،لقد كان المغرب يشهد مرحلة انتقالية بين الدولة الموحدية المنقرضة والدولة المرينية الفتية التي سعت لإثبات وجودها،من خلال البحث عن الشرعية المتمثلة في العلماء واكتساب دعم هذه الفئة،وتجدر الإشارة إلى أن القرائن التاريخية التي تعرضت للتأريخ لهذه الدولة سياسيا وعسكريا،أثبتت لنا دور وجهود النخبة العالمة في إقامة صرح دولة بني مرين،شأنها في ذلك شأن الدولة المرابطية بغض النظر عن المتغيرات والاختلاف في جوهر كل حركة[52]،وانطلاقا من هذا التوافق يحق لنا القول أن العلماء اضطلعوا بهذا الدور وسعوا إلى دعم الدولة المرينية،حيث أفصحت المصادر عن سيرة أمراء بني مرين في بداية أمرهم،واتصافهم

بصفات الصلاح والتقوى،فهذا الأمير عبد الحق[53] رأس الأسرة المالكة اشتهر بالتقوى والفضل والدين والصلاح والبركة واليقين،فعد من العلماء والصلحاء والزهاد والأتقياء54.إذ أضحى"...**من الضروري أن ينتمي المؤسسون إلى الصف العلمي حتى يكون لحركتهم السياسية والعسكرية مشروعية،وأن المجتمع لم يعط الولاء لدولة وينقض أخرى إلا إذا كان المسؤول عنها عالما**..."[55]،مما يبرز لنا التوجه العام للأمراء الأوائل،فقد كان الأمير عثمان بن عبد الحق ذا حياء ودين وفضل مستبين،معظما للفقهاء مكرما للصلحاء[56]،ويسوق لنا ابن أبي زرع الفاسي صفات يعقوب بن عبد الحق المنصور التي لا تخرج عن ما اتصف به سلفه من توقير للصالحين وإكرامهم وتعظيم للعلماء وتقريبهم منه[57].

شكل اتصاف أمراء بني مرين بتقريب العلماء والصلحاء بداية الطريق للمشروع التأسيسي،ومن جهة ثانية أفصح العلماء على حضورهم في مسرح الأحداث والتأثير فيها،فقد وفروا كثيرا من الجهد والعناء على الأمراء المرينيين،عند ضمهم للمدن والأقاليم،فهم أعلم الجميع بشؤون الرعية وصلاحها،ونستشف ذلك عند ضم الأمير أبي بكر لمدينة فاس حيث"...**دخلها صلحا عن رضا أهلها،فبعث إليه أشياخها فأتاهم،فبايعوه بالرابطة التي بخارج باب الشريعة،وكان أول من بايعه الشيخ الفقيه الصالح عبد الله الفشتالي،ثم الفقهاء والأشياخ**..."[58]،لقد كان العلماء في مقدمة أهل فاس الذين بايعوا الأمير أبا بكر وعلى رأسهم الفقيه عبد الله الفشتالي الذي كان"...**حضوره ملاك تلك العقيدة والبركة التي يعرف أثرها خلفهم في تلك البيعة**..."[59]،فانقادوا وراءه واستمعوا لرأيه وشكلت بيعتهم الضمان الذي يلتزم به الأمير أبو بكر[60] اتجاه أهل المدينة.وغير خاف عنا أن ولع العامة بتقليد العلماء والانقياد لهم باعتبار أنهم الرموز التي يقتدى بها،فإن هذا الانقياد والولاء عند تأسيس الدولة لم يكن فقط للعلماء المساندين لها بل تجاوز حتى إل العلماء المعارضين،وهذا إن دل على شيء فإنما يدل عن الدور الذي اضطلع به العلماء[61]،فقد استطاعوا التعامل مع التناقضات والأزمات وبالخصوص عندما ثار أهل فاس على المرينيين،حيث اقترح الفقيه ابن الخبا تنفيذ حكم القصاص على أصحاب الثورة وتغريم الباقين،فاستصوب الأمير أبو بكر رأيه ونزل عند اقتراحه،لا لشيء إلا للمكانة التي تمتع بها العلماء عند الأمراء الأوائل،حيث يورد ابن أبي زرع هذه الحادثة قائلا:"...**فلما رأى ذلك منهم قبض على أشياخها ورؤسائها وأشرافها فثقفهم في الحديد وطالبهم بالمال والأثاث الذي انتهبوه من قصره فقال لهم شيخ منهم يعرف بابن الخبا إنما فعل الذنب منا ستة،فكيف تهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ولو فعلت ما أقول لك لكان صوبا وجزما،قال وما هو أيها الشيخ قال:تخرج هؤلاء الستة الذين سعوا في الفتنة وكانوا رؤوسها للسيف فتعشف بهم وتأخذنا نحن بغرم الأموال،قال صدقت،فقتل الأشياخ الستة**..."[62]،يستشف من هذا الكلام أن السلطة حكمت العلماء في قضية

شائكة وجسدت قرارهم رغم تبعاته،وهذا يبرز لنا البعد التوافقي التبركي في علاقة السلطة بالعلماء.

والظاهر أن الأمر اكتسى كذلك بعدا مصلحيا تجسد في حرص كلا الفئتين على تثبيت وجودها،من خلال توظيف السلطة لكل نفوذها لإخضاع المناطق والأقاليم وضبطها،فيسعون لإعادة الاعتبار لهم ولمذهبهم خصوصا بعد ما لقوه من تضييق مذهبي في عهد الموحدين[63]،وهذا ما دفع البعض منهم وخصوصا الفشتالي للوقوف في وجه التيار الرجعي واستئصاله من جذوره نهائيا[64]،وهو تجسيد لتوجه الدولة للقضاء على المعارضين لها وتم تنفيذ الحكم على الفقيه المغيلي ومن كان معه حيث قتلوا جميعا حتى يكون عبرة لغيرهم[65].

وفي نفس السياق يمكن الوقوف على صفات العلماء الذين اعتمدتهم الدولة لترسيخ وجودها بحيث"...**يمكن إجمالها في استعمال فئة من العلماء موالية للسلطة القائمة وفي نفس السياق متناقضة ومصالحها مع التيار المعارض،وهو ما عكسته قصة المغيلي آنفا،أي أن مصلحة الدولة في علماء يناصرونها ويوافقون على مقترحاتها،وأن تعلق الأمر بإعدام وملائهم،تحت غطاء القضاء على الفتنة وموقظها**..."[66]،إن الظرفية التي تأسست فيها الدولة المرينية كما وضحنا آنفا جعلها تبحث عن مباركة العلماء ودعمهم،وتعرضها لثورة يتزعمها العلماء يفت في عضدها،لذلك لا نستغرب حجم القرار المتخذ من قبل السلطة حتى تضمن تثبيتا كاملا لنفوذها[67] واستمرارية في قرارتها المستقبلية والأكثر من ذلك جعل العلماء يسكتون عن حوادث الاغتيال السياسي متمثلا في نكبة كثير من العلماء المقربين للسلطة وتصفيتهم،كما جرى مع عبد العزيز الملزوزي وأبي يحي بن أيوب ومحمد الكناني،أي أن الدولة تعاطت مع هؤلاء بمنطق نفعي[68]،كما تم توظيف الجانب الدعائي من خلال تقريب نماذج من العلماء لأنهم الأقدر على هذه المهمة من خلال القصائد التي نظموها؛وهذا ما قام به عبد العزيز الملزوزي حيث يقول:

أبا يوسف أنت الغياث لديننا وأولوا العلم في أخبارهم بك بشروا

ستملكها شرقا وغربا وقبلة وجوفا فهذا كان في الجفر يذكر[69]

لقد أبان فيها عن استشرافه لمستقبل الدولة كما كان في الوقت نفسه موصلا لخطابها الجديد[70]،بأسلوب بسيط مفهوم لدى الخاص والعام جامع بين الحاضر والماضي،وبالمقابل هو يربط الصلة ويوثقها بين شرعية الحكم المريني بالمشروعية الأولى للخلافة،وبين تشنيعه على خلفاء الموحدين الأواخر،وهذا يقودنا إلى الجزم بأن الإنتماء القبلي للعلماء إلى زناتة وبصرهم باللسان البربري كان له أبلغ الأثر في البعد التواصلي بين السلطة والرعية والسعي للتهدئة والتوفيق بين الثائرين والدولة[71]،ولكن ارتبطت باحتياجات ومتطلبات السلطة المرينية،التي توافقت وتقاطعت مع رغبات النخبة العالمة،فكيف ستتطور هاته المساندة،وما طبيعتها،وكيف استطاعت السلطة

توظيف العلماء خدمة لمشروعها وشرعنة سلوكها؟[72]،مرة في الجهاد بالأندلس ومرة في مشروع الوحدة المغربية على عاتق المرينيين.

ومجمل القول أن العلماء اضطلعوا بأدوار طلائعية عند تأسيس الدولة المرينية،حيث وجدوا فيها نفسا جديدا وعودة لمكانتهم السابقة التي كانت زمن المرابطين بعد أن فقدوها في عصر الموحدين،لذلك وقفوا إلى جانبها ودعموها بكل مالهم من نفوذ علمي وروحي عند العامة،وسعوا إلى لم الشمل وإحقاق الحق ودحض الباطل وتأسيس دولة جديدة صحيحة العقيدة والمذهب يكون الناس فيها أمة واحدة،وإقامة رسم الجهاد ورفع الغبن عن المسلمين وتوحيد المنطقة من جديد وإصلاح أحوالها وإشاعة العدل ورفع الظلم،وهذا ماسيؤكده حضورهم عندما بدأ المرينيون جهادهم في الأندلس وحمايتهم لسلطان المسلمين بها.

الهوامش:

1) ابن خلدون عبد الرحمان،**المقدمة**،طبعة جديدة منقحة،بيروت،دار الشرق العربي،1425ه/2004م،ص:139.
2) المصدر نفسه،ص:150.
3) هو الإمام القائم بالمغرب الأقصى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ مؤسس الدولة الإدريسية،بويع بمدينة وليلي يوم الرابع من شهر رمضان سنة172ه،كانت مدة حكمه خمسة أعوام وسبعة أشهر وتوفي في مفتتح شهر ربيع الآخر سنة177ه،ينظر:الفاسي ابن أبي زرع علي،**الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**،الرباط،دار المنصور للطباعة والوراقة،1972م،ص ص:20-23.
4) بوزيدي أحمد،**العلماء والسلطة والمجتمع بالمغرب المريني**،أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية،شعبة التاريخ،جامعة سيدي محمد بن عبد الله-ظهر المهراز-فاس،1428ه-1429ه/2007م-2008م،ص:90.
5) بن بيه محمد محمود عبد الله،**الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين**،ط1،بيروت،دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع،1421ه/2000م،ص ص:49-82.
6) المرجع نفسه،ص ص:207-231.
7) خطيف صابرة،**فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية**،ط1،الجزائر،جسور للنشر والتوزيع،1432ه/2011م،ص ص:96-103.
8) سماح بنت سعيد عبد القادر باحويرث،**الأثر السياسي والدور الإصلاحي للعلماء في عصر سلاطين المماليك(648ه-923ه/1250م-1517م)دراسة تاريخية حضارية**،رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي،كلية الشريعة والدراسات الإسلامية،قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية،جامعة أم القرى مكة المكرمة،1431ه/2010م،ص ص:22-26.
9) ابن خلدون عبد الرحمان،**تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**،ضبطه الأستاذ خليل شحادة وراجعه الدكتور سهيل زكار،ج7،ط2،بيروت،دار الفكر،1421ه/2001م،ص:79.
10) المصدر السابق،ص:278.

11) ابن مرزوق محمد،**المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**،دراسة وتحقيق الدكتورة ماريا خيسوس بيغيرا،تقديم محمود آغا بوعياد،طبعة خاصة،الجزائر،موفم للنشر،2011م،ص:107.

12) ابن الأحمر إسماعيل،**روضة النسرين في دولة بني مرين**،ط1،الرباط،المطبعة الملكية،1382ه/1962م،ص:09.

13) الفاسي ابن أبي زرع علي،**الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**،الرباط،دار المنصور للطباعة والوراقة،د.ت،ص:13-14.

14) **سجلماسة:**مدينة كبيرة كثيرة العامر وهي مقصد للوارد والصادر كثيرة الخضر والجنات رائقة البقاع والجهات ولا حصن عليها،وإنما هي قصور وديار وعمارات متصلة على نهر لها،ينظر:الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد،**كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**،المجلد الأول،ط1،بيروت،عالم الكتب،1409ه/1989م،ص:225.

15) -ابن خلدون عبد الرحمان،**العبر...**،ج7،المصدر السابق،ص:221.

16) **بلاد الزاب:**وهي على طرف الصحراء في سمت بلاد الجريد،وهي مثلها في حر هوائها وكثرة نخيلها،وهي مدن كثيرة وأنظار واسعة وعمائر متصلة،فيها المياه السائحة والأنهار والعيون،ينظر:مؤلف مجهول،**كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار(وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب)**،نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد،ط1،بغداد،طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة،د.ت،ص:171.

17) الحريري محمد عيسى،**تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني(610ه-869ه/1213م-1465م)**،ط2،دبي،دار القلم،1987م،ص:04.

18) المصدر السابق،ص:09.

19) حول كثرة قبائل بني مرين ينظر:المصدر نفسه،ص:11-12.

20) الشريف محمد،**إصدارات في تاريخ الغرب الإسلامي(قراءات نقدية)**،ج1،ط1،الرباط،2005م،ص:68.

21) حركات إبراهيم،**المغرب عبر التاريخ (من بداية المرينيين إل نهاية السعديين)**،ج2،الدار البيضاء،دار الرشاد الحديثة،د.ت،ص:12،لم يكن المرينيين أصحاب فكرة جديدة أو أصحاب دعوة إصلاح كباقي الدول التي تعاقبت على حكم المغرب الأقصى،ولكنهم انتصروا استجابة لمطامح الشعب العميقة في تغيير الوضع وإعادة الأمور إلى نصابها،إذ سجل التاريخ تخلي الحكام الجدد عن الأفكار الموحدية فيما يخص المذهب والعقيدة،وكانت دعوة المغاربة إلى المذهب المالكي بعد نزعة الظاهرية الموحدية،كما أخذ المرينيون على عاتقهم مهمة تنقيح العقيدة الأشعرية مما كان يشوبها من أفكار مقتبسة من المعتزلة وغلاة الشيعة،ينظر:أسقر سعاد،**التفسير والمفسرون بالمغرب الأقصى**،ط1،القاهرة،دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة،1431ه/2010م،ص:23.

22) حركات إبراهيم،المرجع السابق،ص:12.

23) المرجع نفسه،ص:14.

24) المنوني محمد،**ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين**،الرباط،كلية الآداب والعلوم الإنسانية،25 جمادى الأولى 1399ه/23أفريل1979م،ص:05.

25) **الأنيس المطرب...**،المصدر السابق،ص:281،**الذخيرة السنية...**،المصدر السابق،ص:24-25.

26) المنوني محمد،المرجع السابق،ص:09.

27) ابن خلدون عبد الرحمان،**المقدمة...**،المصدر السابق،ص ص:151-153،ابن أبي زرع،**الأنيس المطرب...**،المصدر نفسه،والصفحة نفسها.

28) مال الله نضال مؤيد عزيز الأعرجي،**الدولة المرينية على عهد السلطان يوسف بن يعقوب (685هـ-706هـ/1286م-1306م) دراسة سياسية حضارية**،رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي،كلية التربية،جامعة الموصل،صفر1425هـ/نيسان2004م،ص:07.

29) **الأنيس المطرب...**،المصدر السابق،ص:282.

30) المصدر نفسه،والصفحة نفسها.

31) هو الأمير عثمان بن عبد الحق،تولى الإمارة بعد مقتل أبيه،وكان شديد الحزم،ذا شجاعة وعزم،له رأي سديد،وعضد شديد،وكرم وإيثار،وحماية للذمار وحفظ للجار،وحياء ودين،وفضل مستبين معظما للفقهاء،مكرما للصلحاء،سلك بذلك نهج أبيه وطريقته،ولم يزل على ذلك إلى أن توفي رحمه الله،اغتاله علج له كان رباه صغيرا ضربه بحربة في منحره فمات من حينه،وذلك في سنة ثمان وثلاثين وستمائة،فكانت أيام إمارته على مرين وبوادي المغرب من وفاة والده وبيعة قبائل مرين له ثلاث وعشرين وسبعة أشهر،ينظر:ابن أبي زرع،**الذخيرة السنية...**،المصدر السابق،ص:37-38.

32) ابن أبي زرع،**الأنيس المطرب...**،المصدر السابق،ص ص:287-289،مال الله نضال مؤيد،المرجع السابق،ص:10،ولد خسال سليمان،**جهود فقهاء المغرب العربي في بناء النظام السياسي الإسلامي بين سنة (633هـ-962هـ)**،أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الإسلامية،تخصص أصول الفقه،كلية العلوم الإسلامية،قسم الشريعة،جامعة الجزائر(1)،1429هـ/2008م،ص:49.

33) هو الأمير محمد بن عبد الحق ويكنى أبو معرف،بويع بعد أخيه عثمان بوادي ردات في أول المحرم من عام638هـ،وقتل في المعترك يوم الخميس09جمادى الآخرة سنة642هـ وله42سنة،وكانت إمارته 04سنين و06أشهر،ينظر:ابن الأحمر،المصدر السابق،ص:16.

34) ابن أبي زرع،**الأنيس المطرب...**،المصدر نفسه،ص:289-290،**الذخيرة السنية...**،المصدر السابق،ص:59-60،ولد خسال سليمان،المرجع نفسه،ص:43.

35) هو الأمير أبو بكر بن عبد الحق ويكنى أبا يحي وهو العسكري،بويع بعد أخيه محمد يوم الخميس09جمادى الآخرة سنة642هـ،وتوفي في قصبة مدينة فاس يوم الخميس منسلخ جمادى الآخرة سنة656هـ،وله52سنة وكانت دولته14سنة،ينظر:ابن الأحمر،المصدر نفسه،ص:17.

36) -ابن أبي زرع،**الأنيس المطرب...**،المصدر السابق،ص:292،**الذخيرة السنية...**،المصدر السابق،ص:64.

37) -الشريف محمد،المرجع السابق،ص:69.

38) -ابن أبي زرع،المصدران نفسهما،الصفحتين نفسهما،ابن خلدون عبد الرحمان،**العبر...**،ج7،المصدر السابق،ص:227.

39) -ولد خسال سليمان،المرجع السابق،ص:43.

40) **مكناسة:**وهي أربع مدن وقرى كثيرة متصلة بالمدن والحصون،المدن منها تاقرارت وتفسيره المحلة،وهو محدث البناء وهو مشرف على بطاح وبقاع مملؤة بفيضات الزيتون فسميت به،وهذه المدينة عليها سور كبير وأبراج عظيمة،وهي مدينة جليلة فيها أسواق حفيلة...،ينظر:مؤلف مجهول،المصدر السابق،ص:187.

41) هو عاشر الخلفاء الموحدين واسمه علي بن المأمون وتلقب بالسعيد،كانت خلافته خمس سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما،توفي في صفر سنة ست وأربعين وستمائة على يد يغمراسن بن زيان أمير تلمسان،بنظر:أبو القاسم محمد بن سماك المالقي الغرناطي،**الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**،تحقيق الدكتور عبد القادر بوباية،ط1،بيروت،دار الكتب العلمية،2010م،ص:253-254.

42) **مراكش:**هي مدينة حسنة القطر جميلة المنظر،ومن أكبر مدن المغرب الأقصى لأنها كانت دار إمارة لمتونة ومدار ملكهم وسلك جميعهم،ينظر:الشريف الإدريسي،المصدر السابق،المجلد الأول،ص:234.

43) ابن أبي زرع،**الأنيس المطرب...**،المصدر نفسه،ص:292،ابن خلدون عبد الرحمان،**العبر...**،ج7،المصدر نفسه،ص:228-229،ولد خسال سليمان،المرجع نفسه،ص:43.

44) -ابن خلدون عبد الرحمان،المصدر نفسه،ص:229.

45) -ابن أبي زرع،المصدر السابق،ص:293،ابن خلدون عبد الرحمان،**العبر...**،ج7،المصدر السابق،ص:230.

46) -المصدر نفسه،ص:294.

47) 47-هو الأمير عمر بن أبي يحي بن عبد الحق ويكنى أبا حفص،بويع بعد أبيه أبي يحي بمدينة فاس يوم الخميس منسلخ جمادى الآخرة سنة656هـ،ثم خلعه عمه يعقوب فدولته بفاس ستة أشهر،وكانت دولته بمكناسة سنة واحدة وستة أشهر،ينظر:ابن الأحمر،المصدر السابق،ص:17.

48) هو أمير المؤمنين يعقوب عبد الحق،يكنى أبا يوسف،لقبه القائم بأمر الله والمنصور به وتلقب في أول أمره بالمؤيد بالله،بويع في سنة656هـ وتوفي بالجزيرة الخضراء بالأندلس وهو معسكر للجهاد عند الزوال يوم الثلاثاء22محرم سنة685هـ،ودفن بجامع قصره من البنية،ثم نقل لبر العدوة فدفن بشالة من سلا،وله75سنة،مولده في عام609هـ،وكانت دولته29سنة و06أشهرو22يوما،ينظر:المصدر نفسه،ص ص:17-19.

49) -نضال مؤيد،المرجع السابق،ص:11-12.

50) -ابن أبي زرع،**الأنيس المطرب...**،المصدر نفسه،ص:299.

51) -(-،-)،**الذخيرة السنية...**،المصدر السابق،ص:118-119.

52) -بوزيدي أحمد،المرجع السابق،ص:91.

53) هو الأمير عبد الحق بن الأمير يحي ويكنى أبا محمد،أبو الملوك من بني مرين،ولد ببلاد الزاب سنة542هـ،دامت ولايته03أعوام و06أشهر،قتل يوم الأحد22جمادى الثانية سنة641هـ وله73سنة ودفن بمكناسة،ينظر:ابن الأحمر،المصدر السابق،ص:14-15.

54) -ابن أبي زرع،**الأنيس المطرب...**،المصدر السابق،ص:285.

55) -بوزيدي أحمد،المرجع نفسه،ص:92.

56) -ابن أبي زرع،**الذخيرة السنية...**،المصدر السابق،ص:38.

57) -(-،-)،**الأنيس المطرب...**،المصدر نفسه،ص:298.

58) -ابن أبي زرع،**الأنيس المطرب...**،المصدر السابق،ص:293.

59) -ابن خلدون عبد الرحمان،**العبر...**،ج7،المصدر السابق،ص:205.

60) -بوزيدي أحمد،المرجع السابق،ص:93.

61) -المرجع نفسه،الصفحة نفسها.

62) -**الأنيس المطرب...**،المصدر السابق،ص:295.

63) -بوزيدي أحمد،المرجع نفسه،ص:94.

64) الكتاني محمد بن جعفر بن إدريس،**سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**،تحقيق الدكتور الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني،ج2،فاس،مطبعة حجر،1316هـ،ص:52،بوزيدي أحمد،المرجع نفسه،الصفحة نفسها.

65) -ابن أبي زرع،المصدر السابق،ص:294-295.

66) -بوزيدي أحمد،المرجع السابق،ص:94.

67) -المرجع نفسه،ص:95.

68) -ابن أبي زرع،**الأنيس المطرب...**،المصدر السابق،ص:385،بوزيدي أحمد،المرجع نفسه،الصفحة نفسها،الهامش رقم01.

69) - الملزوزي عبد العزيز،**نظم السلوك**،ص:08،نقلا عن بوزيدي أحمد،المرجع نفسه،الصفحة نفسها.

70) -بوزيدي أحمد،المرجع نفسه.

71) -ابن أبي زرع،المصدر نفسه،ص:377،بوزيدي أحمد،المرجع نفسه،ص:96.

72) -بوزيدي أحمد،المرجع نفسه،الصفحة نفسها.